سينما

«فيلم أميركي طويل» إلى الشاشة

زياد الرحباني... أول مراجعة جذرية للح

زياد الرحباني وبيار جمجيان في مشهد من العمل

محمد همدر

تعود مسرحية «فيلم أميركي طويل» لزياد الرحباني الى الجمهور من خلال الشاشة الكبيرة، للمرة الأولى، بعد عرضها عام 1980 على مسرح «جان دارك». إنّه العمل الثاني بعد «بالنسبة لبكرا شو» الذي رأهنت شركة M Media على مجهود ترميمه. ينقل العمل المسرحي يوميات مقيمين في مستشفى الأمراض العصبية في ضاحية بيروت الجنوبية خلال الحرب الأهلية. عوارضهم المشتركة، آثار الحرب الدائرة خارج جدران المشفى. يشكّل العرض السينمائي فرصة ثانية لمن لم يشاهد المسرحية أو يسمعها كاملة، فعادة بثّ مقاطع قصيرة أو جُمل من مسرحيات زياد على الإذاعات اللبنانية، أساءت إلى مضمون هذه الأعمال وقيمتها.

خاضت هذه المادة الخّام التي صوّرتها أيضاً ليال الرحباني شقيقة زياد، المسار نفسه التي خاضته «بالنسبة لبكرا شو» في رحلة الترميم في الصوت والصورة. لكن ظروف تقنية معيّنة أسهمت في أن تكون نسخة «فيلم أميركي طويل»، جيدة جداً – ودائماً مقارنة مع الحالة التي وجدت فيها – صوتاً وصورة، بحسب محمد حمزة من شركة «أم ميديا». يقول حمزة لـ «الأخبار» إنّ «المادة أصلاً أحدث بسنتين، وظروف الإضاءة الأصلية للمسرحية وطريقة التصوير ساعدا جداً». وتابع أنّه ذهب بالمادة مرة

فريق الممثلين: ما أشبه اليوم بالأم

الحديث مع الفريق التمثيلي في «فيلم أميركي طويل» لا يوحي بأنّ الأمس يشبه اليوم، بل إنّ اليوم أسوأ من الأمس بكثير، كأنّ الحرب بضراوتها كانت لا تزال أكثر عطفاً من هذه الأيام.

تقول كارمن لبّس إنّ التمثيل كان حلماً تحقّق من خلال «فيلم أميركي طويل». يومها، كانت صغيرة، ذهبت إلى تجربة الأداء وانطلقت المغامرة. أحدهم أخبر والدها في السعودية، أنّ ابنته تعود عند منتصف الليل. تقول «كان التمثيل بالنسبة إلى والدي من المحرّمات». ولولا تدخّل عمّها، لما أكملت وصعدت على خشبة المسرح. وعن المسرحية، تقول لبس إنّ زياد يتناول «وجهات نظر أشخاص وصلوا إلى ما وصلوا إليه بشكل سلس وذكي». وتضيف أنّ هذا العمل ينبغي أن يدرّس لأن قصة كل واحد من الشخصيات، تلخّص الحرب الأهلية. وتختم أنّ «أكثر شعب مريض اليوم هو الشعب اللبناني بسبب كمية التوتّر التي يعيشها. حالة العصبية العالية الموجودة هي نتيجة الحرب وما بعدها».

منى سعيدون (عايدة) خاضت تجربتها الأولى أيضاً على خشبة المسرح، وحصلت على دورها بالصدفة. كانت تسأل عن عمر فرّوخ (عمر) وعصام الحاج علي في القنطاري. التقت بزياد وعرض عليها الدور. جوابها الأول كان «أنا ما بعرف مثّل». تقول إنّ الدور التي حصلت عليه كان صغيراً في البداية، لكنه أخذ حجماً أكبر مع العروض. تتذكر العرض الأول: «كنت مبسوطة وخايفة. قلت لزياد ما بعرف إحكي». تتذكر من الحرب أن المسرحية جعلت الجوّ بين الممثلين حميماً: «كنا نبقى في المسرح في حال بدأ القصف». لكن الأجواء بين الجمهور لم تكن دوماً حميمة، لأنه كان ينقسم أحياناً بحسب المشهد.

تقول منى إنّ شخصيات هذه المسرحية كانت موجودة آنذاك في دار للعجزة حيث بحث زياد الرحباني برفقة طبيب من آل لبّان عن أبطال مسرحياته. وتضيف أنه حتى شخصية رشيد وبعض كلماته كانت موجودة في هذا المأوى أيضاً واستمعت إليها مع زياد وباقي الممثلين.

عن شخصية هاني، يقول سامي حوّاط إنّها «شخصية الآدمي، الذي يحاول تفادي المشاكل»، حتى في المرة الوحيدة في المسرحية التي فكر فيها هاني بالانتفاض، غيّر رأيه. يفضّل سامي أن لا يتكلّم عن أعماله التي مضت، يكتفي بالقول إنّها كانت أياماً جميلة، و«كان الجوّ السياسي يجمعنا، اليوم لا شيء يجمع»، موضحاً أنّ من لم يعش تلك المرحلة، لن يفهم عمَّ نتكلّم. بطرس فرح (قاسم) قال إنه رغم الحرب، أتى الناس لمشاهدة المسرحية يومها. وعن قاسم الذي أدّى دوره، يقول: «كان مصاباً بالنقزات كإدوار المسكون بالمحمودات».

بدأت علاقة ابراهيم جابر بزياد بحكم الجيرة. كان يسكن في المبنى نفسه في القنطاري، حيث سكن زياد بعد انتقاله من انطلياس. يقول: «كنت أعمل أيضاً كـ «بارمان» في البار نفسه الذي كان زياد يعزف فيه كل ليلة مع توفيق فرّوخ. في هذا البار، كتب زياد «بالنسبة لبكرا شو»، وعرض عليّ أن ألعب دوراً فيها. لاحقاً طلب مني أن ألعب دوراً في «فيلم أميركي طويل». يقول: «العرض السينمائي أعادنا 35 سنة إلى الوراء. ذكّرنا بأناس كانوا يملكون موهبة، بعضهم كان يمثّل للمرة الأولى». ويضيف أنّ ما قاله زياد في المسرحية كان صحيحاً مئة بالمئة، وما زال صالحاً إلى اليوم. عزف ابراهيم جابر على الطبلة والرقّ في موسيقى «فيلم أميركي طويل»، وبعدها غادر لبنان إلى فرنسا وعاد بعد حوالى عشر سنوات، وعمل مع زياد على موسيقى «بخصوص

إدوار لم يعد يُضحك أحداً!

بيار أبي صعب

«تجري أحداث هذه المسرحية في شهر تشرين الأول 1980، أو تشرين الأول 1979، أو تشرين الأول 1978، حيث لم يتغيّر إجمالاً الوضع السياسي النفسي العام». تلك كانت الجملة الأولى في مسرحيّة «فيلم أميركي طويل» التي قدّمت على خشبة «مسرح جان دارك» في بيروت. وفيها يؤدّي جوزف صقر أغنية زياد الرحباني الشهيرة: «شوف الليرة ما أحلاها/ بتقطع من هوني لهونيك». الآن، صارت المسرحية فيلماً، بفضل إيلي خوري الذي انتشل بعض الكنوز النائمة في الأرشيف، من خطر الضياع والنسيان، وأعادها إلينا عبر «شركة إم ميديا». بعد 36 عاماً، نستعيد هذه المسرحيّة المدهشة برؤيويّتها، ونفكّر أن لبنان ما يزال عصفوريّة كبيرة، مسيّجة بجدار من العصبيّات والمصالح والارتهانات المشبوهة. لكن عصفوريّة 1980 كانت أفضل!

لقد تغيّر الوضع كثيراً، بين مسرحيّة الجان دارك، والفيلم المأخوذ عن فيديو أ(قرب إلى مسودّة عمل)، أخضع لكل التحسينات التقنيّة الممكنة. لم يعد هناك «غربية» و«شرقيّة»، وبتنا نعبر «من هوني لهونيك» على هوانا. غير أنّ الحواجز النفسية ترسّخت. والخوف ازداد أضعافاً، خوف هاني (سامي حوّاط) من الحواجز، وقاسم (بطرس فرح) من الانفجارات. الشعب اللبناني بألف خير، شكراً. الشعب الذي «يفرد»، أي ينفرط عقده باستمرار إلى أفراد تحركهم أنانياتهم وانتهازياتهم وهمجياتهم المختلفة. الحدود باتت غير منظورة بين أجزاء الوطن المتعددة بعدد جماعاته المتناحرة. ولو عاد زافين (غازاروس ألطونيان) من منفاه الكندي، لاكتشف أن «الستيريو» مرّ عيله الزمن... صرنا في نظام الـ«دولبي 5,1»! «هي بلد؟ لأ مش بلد! قرطة عالم مجموعين». لم يختصر مبدعٌ بؤسَنا، منذ الاستقلال، كما فعل العبقري زياد الرحباني في «فيلم أميركي طويل»!

هل نواصل قياس المسافة بين المسرحية والفيلم الذي يهرع اللبنانيون لمشاهدته، كي يضحكوا من أنفسهم، ويتطهروا من أمراضهم الجماعيّة وجراحهم السريّة. في عام 1980، كانت بيروت عامرة بالمسارح. بعد 36 سنة، مسرح «جان دارك» اختفى، والـ«بيكاديللي»، تسكنه الأشباح، يتآكل وينهار بصمت في انتظار برابرة المضاربات العقاريّة، أي حكامنا وشركائهم. «أحداث حوادث لبنانية... طلع لبنان الجديد لحم بعجين»: لم يفهم رشيد (زياد الرحباني) كيف خان «أبو الجواهر» القضية والمناضلين... الكباريه الحريري، منذ ذلك الوقت لم يحمل السلام الموعود، لكنّه راكم الديون، وصحّر البلاد، فرّغها من الثقافة والحضارة والفكر والنهضة الأكاديميّة، لتعمّ البزنسة والأميّة والتطرّف...

وإذا بلبنان ما بعد الجديد، صار أكثر من «لحم بعجين». انظر(ي) الملاهي، والمحطات التلفزيونية، والعمارات الشاهقة التي تقضم المدينة، والاستثمارات المشبوهة، و... المربّعات الأمنيّة. كان الأجدر بك أخي رشيد أن تبقى هناك في عصفوريّة الثمانينيات، حيث كل شيء أجمل، مثل المسرحيّة التي نشاهدها الآن بالأبيض والأسود، محفوظة بفورمول المرحلة. كانت هناك «حركة وطنيّة»، على علّاتها، تسيطر على 84 بالمئة من الأراضي اللبنانيّة، كما يذكّر الرفيق نزار (محمد كلش) الذي جنّنه أنّه لم يعد يفهم في السياسة أكثر من جارته الحجّة. ولم يهضم فكرة أنّنا «صرنا نحن والأنظمة الرجعية بنفس الخندق». سقا الله أيام كان اليساري الخائب أو المخذول، يُجنّ من الشرخ بين النظريّة والممارسة. اليوم ينتقل برشاقة «جدليّة» إلى خندق النظام العالمي الجديد، أو يصبح من أعيان الطائفة، وثوار الانجي أوز.

حين تشاهد الفيلم تحنّ إلى عام 1980، عندما كانت الأمور، على تعقيداتها، أكثر بساطة، والصراع أكثر وضوحاً، و«المؤامرة الأميركيّة» تمكن رؤيتها بالعين المجرّدة (كتاب جيمس ستوكر عن الدور الأميركي في اشعال الحرب الاهليّة، يعرضه الزميل أسعد أبو خليل هذه الأيّام في «الأخبار» وسط كوما وطنيّة عظيمة). لو عاد اليوم البروفسور عبد الأمير (رفيق نجم) أستاذ المنطق الباحث سدى عن «المؤامرة »، ورأى كيف «تتفرّع» عندنا، لأقفل راجعاً بسرعة، وتمكّن من إنجاز كتابه. حتى الحشاشان أبو ليلى (جوزيف صقر) وعمر (توفيق فروخ)، لن يستمتعا بـ «التسطيل» في بيروت الحالية...

لكن ماذا عن إدوار؟ في العرض الأوّل للفيلم، قبل أسبوعين، لاحظنا أن شخصيّة إدوار التي يؤديها بواقعيّة مدهشة زياد أبو عبسي، لم تعد تُضحك الناس. كلّما عبّر عن ذعره من «المحمودات»، كان يسود وجوم في الصالة! فإما أن المشاهدين في معظمهم مسكونون بالرهاب نفسه، وإما أن الجماعات المذعورة لم تعد تثير ضحك الجمهور، بل الشفقة في أفضل الحالات. إنّه زمن المذعورين. «زمان الطائفيّة» بلغ الآن أوجه. التعصّب الذي كان كامناً في العقل الباطني، نخفيه كمرض ونكذب ونجامل، بات مادة مفاخرة، وأمراً في منتهى الطبيعيّة. «المسيحيّي خايفين يا خيّي»... لقد تحققت كوابيس إدوار بأسوأ أشكالها. في هذا الربيع اللطيف، ازداد خوفاً من «المحمودات»، ولم يعد خوفه مضحكاً. في عصفوريّة 1980، كانت الأمور أجمل: كانت هناك بارانويا انعزاليّة وكفى... رزق الله! اليوم في «زمان المذهبيّة» تفرّعت العصبيات والانعزاليّات. الثمانينيات كانت أرحم. لقد قام زياد يومذاك، بنقد الوعي الطائفي الذي لا يقتصر على «المجانين»، بل يتعداهم إلى المرضات والمرضين والطبيب. قدّم لنا الرحباني الابن أوّل محاولة جادة وموجعة لنقد الحرب وخطابها، ونقد أخطاء القوى اليسارية عندما كانت في أوج شعبيّتها.

في بيروت 2016، نستعيد «فيلم أميركي طويل»، مبتوراً للأسف (حذفت مشاهد أساسيّة في السياق الدرامي والذاكرة: رشيد «ملك الساحة اللبنانية ع بياض»، وموعده مع (الرئيس إلياس) «سركيس» لكشف المؤامرة، مشهد «ما في 160 بالميّة حكيم»...). نكتشف كم تراجعنا، وكم ازداد الخراب، وتعاظمت الانهيارات، وضاعت البوصلة. ربّما لأننا لم نسمع رشيد بما فيه الكفاية. ولم نصدق نزار، ولم نفكّر مع عبد الأمير. ولم نضحك كفاية من «الإدوار» القابع في أعماق كل منّا. كم كانت جميلة عصفورية 1980. «قوم فوت نام وصير حلام إنو بلدنا صارت بلد»! ترى، كيف «ستصير» «البلد» بعد 36 عاماً؟